جامعة القاهرة
كلية دار العلوم
قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

الحياة الدينية الإسلامية في مصر في العصر العثماني

923-1213هـ(1517-1798م)

رسالة لنيل درجة الدكتوراه

مقدمة من الباحث

عزت إبراهيم دسوقي

تحت إشراف

الأستاذ الدكتور / عبد الرحمن أحمد سالم

أستاذ ورئيس قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

بكلية دار العلوم – جامعة القاهرة

1427هـ (2006 م)

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

تدرس هذه الرسالة الحياةَ الدينية الإسلامية في مصر من سنة 923هـ (1517م) إلى سنة 1213هـ (1798م) ، وهي الفترة التي تبدأ بالفتح العثماني لمصر وتنتهي بالاحتلال الفرنسي لها .

وترجع أهمية الموضوع إلى عدة أسباب ، **أولها** : توضيح ما كان للإسلام من أثر في حياة المصريين حينذاك ؛ بحيث هيمنت آدابه ومثله وتقاليده على المسلمين في مصر في مختلف نواحي حياتهم . و**ثانيها** : محاولة تصحيح بعض المفاهيم الشائعة عن الحياة الدينية الإسلامية في مصر في تلك الفترة ، ومن ذلك : كراهية المصريين للحكم العثماني ، واقتصار دور العلماء على شغل الوظائف الدينية وعدم تقديرهم ، وتدهور التعليم ، و" شيوع الجهل والفقر والمرض " بين المصريين ، ولجوؤهم إلى التصوف فرارا من الحياة التي يعيشونها ، والربط بين التصوف والدجل والشعوذة والسحر ، وغير ذلك .و**ثالثها** : أن فترة البحث حفلت بالعديد من الأحداث المهمة في تاريخ الدولة العثمانية وانعكس أثرها على مصر بوصفها إحدى ولاياتها ، فمن ذلك : محاولة الصفويين والأوربيين الاستيلاء على البلاد العربية وتصدي العثمانيين لهم ، واتساع الدولة العثمانية في أوربا ونشر الإسلام بين كثير من سكان الأقاليم المفتوحة فيها ، وتحقيق أول وحدة للعالم العربي في ظل العثمانيين بعد سقوط بغداد على أيدي التتار ، ونقل الخلافة الإسلامية من القاهرة إلى إستانبول وجَمْع السلطان العثماني بين منصبي السلطنة والخلافة في آن واحد .

وقسمت البحث إلى خمسة فصول يسبقها مقدمة وتمهيد وينتهي بخاتمة .

يتناول التمهيد – باختصار – الحديث عن موضوعين : الأول اتساع الدولة العثمانية وتوليها زعامة العالم الإسلامي ، والآخر تكوين المجتمع في مصر إبان العصر العثماني .

ويبين الفصل الأول – وعنوانه " التجمعات الدينية : العلماء والصوفية " – الدورَ الذي قام به العلماء في التدريس والإفتاء والقضاء ، و إدارة البلاد ، ومشاركتهم في الحياة السياسية مشاركة إيجابية فعالة ، وصورا من تقدير المجتمع لهم ، كما يوضح هذا الفصل أيضا شيوع التصوف في مصر ، والعوامل التي أدت إلى ذلك ، والدور الذي قام به الصوفية ، والمآخذ التي أُخذت على بعضهم .

ويوضح الفصل الثاني – وعنوانه " المؤسسات الدينية " – مدى اهتمام الحكام والمحكومين بهذه المؤسسات من حيث إصلاحها وتجديدها ، وإنشاء كثير منها ، ورصد

الأوقاف المدرة عليها . كما يوضح هذا الفصل أيضا مراحل التعليم بتلك المؤسسات ونظام التدريس فيها ، وأشهر العلماء الذين درّسوا بها وأبرز أعمالهم .

ويتناول الفصل الثالث– وهو بعنوان " التعليم الديني في البيوت " – فئات المتعلمين في البيوت من أطفال الأسر الموسرة والنساء والعسكريين ، ويذكر نماذج لمثقفين عسكريين ، والحلقات العلمية التي يعقدها بعض العلماء في بيوتهم أو فى بيوت الأمراء ، ويتحدث أيضا عن المكتبات الخاصة التي تردد عليها راغبو الثقافة .

والفصل الرابع – وهو بعنوان " الآثار الاجتماعية للدين في مصر العثمانية "– يبرز الأشكال المختلفة لتلك الآثار في مجالات الرعاية الاجتماعية ، والاحتفالات ، والحياة الأسرية.

والفصل الخامس والأخير – وعنوانه " أوضاع أهل الذمة في مصر العثمانية " – يتناول ما تمتع به أهل الذمة في مصر حينذاك من حقوق ، ويبرز روح التسامح التي سيطرت على علاقة المسلمين بغيرهم ، كما يوضح إلى أي مدى تأثر فريق كبير من الذميين بالمسلمين في عاداتهم وتقاليدهم حتى في أحكام الأسرة ، مع ذكر أمثلة لمعتنقي الإسلام وتوضيح ما ترتب على ذلك من آثار .

وأخيرا تأتي الخاتمة التي تتناول أهم النتائج التي توصل إليها البحث .

ولا توجد دراسات حديثة تعالج بصفة خاصة الحياة الدينية الإسلامية في مصر في العصر العثماني وتنفرد بذلك بشكل مفصل ، ولكن بعضها ألقى أضواء مفيدة على جوانب مختلفة من البحث . فمن أبرز تلك الدراسات كتاب " الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها " للدكتور عبد العزيز الشناوي ، وقد أفاد البحث في عدة نقاط أهمها إبراز الطابع العام للدولة العثمانية وهو أنها دولة إسلامية في تصرفاتها . وكذلك كتاب " الوكالات والبيوت الإسلامية في مصر العثمانية " للدكتور رفعت موسى ، وقد استفاد البحث منه في توضيح مدى حرص المعماري المسلم على تصميم البيت بما يتفق مع مبادئ الإسلام . ومن تلك الدراسات أيضا كتاب " ثقافة الطبقة الوسطى في مصر العثمانية " للدكتورة نللي حنا، ويتناول هذا الكتاب ثقافة وتعليم تلك الطبقة ونوعية الكتب التي كانوا يقرأونها ويتداولونها. وأفاد البحث في تصحيح ما يشاع عن فترة الحكم العثماني من أنها فترة ركود علمي ،وبيان أن الفترة التي سبقت الحملة الفرنسية على مصر شهدت صحوة في مختلف العلوم العقلية

والنقلية على السواء .ومن تلك الكتب أيضا كتاب " التاريخ الاجتماعي للقانون في مصر الحديثة " للدكتور محمد نور فرحات ، وركز فيه على القضاء الشرعي في مصر في العصر العثماني ، وأفاد البحث في بيان اختصاصات القضاة ، وكيفية الفصل في القضايا المعروضة عليهم ، وكتاب " الإدارة في مصر في العصر العثماني " للدكتورة ليلى عبد اللطيف ، الذي أفاد البحث في بعض الجوانب وأهمها المهام التي قام بها القضاة والمفتون في القاهرة والأقاليم . ومن تلك الدراسات الحديثة أيضا كتاب " الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له " للدكتور أحمد فؤاد متولي ، وأفاد البحث في بيان موقف العلماء من الحرب الدائرة بين العثمانيين والمماليك بالشام ومصر .

دراسة لأهم مصادر البحث

اعتمد البحث اعتمادا كبيرا على العديد من الوثائق غير المنشورة المحفوظة بدار الوثائق القومية وأرشيف وزارة الأوقاف ودار الكتب المصرية ، كما اعتمد على العديد من المصادر المخطوطة والمنشورة .

ونبدأ دراستنا عن المصادر بالحديث عن **الوثائق** ؛ ويمكن القول إن سجلات المحاكم الشرعية المحفوظة بدار الوثائق القومية – وأكثرها خاص بالقاهرة وبعضها لمحاكم الأقاليم – تُعدّ من أهم الوثائق لأن الأمور المتعلقة بالسكان في جميع المجالات كانت تُطرح أمام المحاكم إذا لم يتم تسوية النزاع بين الخصمين . وعلى الرغم من أن ما في السجلات صورة جزئية للواقع فإن هذه السجلات تصور مظاهر الحياة التي غلب عليها الطابع الديني . وقد اعتمدت الدراسة عليها بصورة كبيرة ، ومن ذلك الحديثُ عن مكانة العلماء ، وتقديرهم في المجتمع ، والتزام القضاة بالشريعة الإسلامية في الحكم ، ورصْد أهمية التعليم الديني والثقافة الإسلامية العامة من خلال ذكر الوظائف العلمية التي تولاها العلماء في المؤسسات الدينية ، وأسماء العلماء المصريين والوافدين ، وقوائم الكتب في المكتبات الخاصة أو العامة . وكذلك ورد الحديث بها عن أوقاف على منشآت في العصر العثماني أو قبله ، ثم فرمانات للحفاظ عليها . كما أفادت أيضا في ذكر العديد من أوجه النفقات على وجوه البر ، وذكر بعض مظاهر الاحتفالات ، كما بينت أوضاع كثير من أهل الذمة ومدى تأثرهم بالمسلمين ، واعتناقهم الإسلام .

وتمثل حجج الأوقاف المحفوظة بأرشيف وزارة الأوقاف ودار الوثائق القومية ودار الكتب المصرية مصدرا آخر مهما لهذا البحث . وقد صدرت تلك الحجج عن المحاكم الشرعية ، وتذكر الحجة بالوصف التفصيلي ما تم وقفه من عقار أو أراض زراعية أو غير ذلك ، والجهة التي تصرف فيها تلك الأوقاف ، ونصيب المستحقين يوميا أو شهريا أو سنويا . وقد أفادت تلك الحجج البحث في الحديث عن الاهتمام بالمؤسسات الدينية ، وإظهار الوازع الديني لدى الأفراد فيما رصدوه على وجوه البر ، والتضامن الشعبي مع الحكام العثمانيين . وأفادت أيضا في توضيح التسامح الإسلامي مع الذميين ؛ إذ ورد في بعضها ما رصدوه على أنفسهم أو ذريتهم أو دور عبادتهم ومَن فيها .

ولا بد في هذا السياق من الحديث عن دفاتر الرِّزَق المحفوظة بدار الوثائق القومية ؛ و الرِّزَق جمع رِزْقة ، وهي أرض حُبست على وجه من وجوه البر ، وحكمها حكم الأوقاف . وأفادت تلك الدفاتر البحث في إثبات الحفاظ على الأوقاف القديمة وذكر العديد من الأوقاف الجديدة ومصارفها .

وبعد حديثنا عن الوثائق نتناول بالتحليل أهم الكتب المخطوطة والمنشورة التي أفادت البحث بصورة كبيرة . والملاحظ أن مؤلفي هذه الكتب كانوا شاهدي عيان للأحداث أو نقلوها عمن شاهدوها أو سمعوا عنها .

ونأتي الآن للحديث عن **المصادر المخطوطة** . ومن بين هذه المصادر التي أفادت البحث كتاب " المنح الرحمانية في تاريخ الدولة العثمانية " للبكري (ت : 1070هـ/1660م) . وقد خصص المؤلف هذا الكتاب لتاريخ الدولة العثمانية حتى سنة 923هـ (1517م) ، ثم أدمج معها تاريخ مصر بعد ذلك ، فيذكر كل باشا وأهم الأحداث في عصره وأعماله حتى سنة 1027هـ(1618م) . وللبكري أيضا كتاب " النزهة الزهية في ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية " وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أنه يغطي فترة مهمة من تاريخ مصر في العصر العثماني هي الواقعة بين سنة 923هـ (1517م) وسنة 1042هـ (1633م) ، ويذكر أيضا كل باشا وأهم أحداث عصره وما تم من أعمال له . وله أيضا كتاب " الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة " ، سار فيه على نهج كتابه السابق مع زيادة الأحداث إلى سنة 1054هـ (1644م) . ومن مؤلفات البكري أيضا " الكواكب السائرة في أخبار مصر والقاهرة " ، وقد أفرد هذا الكتاب لذكر تاريخ مصر من أقدم العصور حتى سنة

1062هـ (1650م) ، وبين فيه أفضلية مصر على غيرها . وأهمية هذا الكتاب بالنسبة إلى بحثنا ترجع إلى أنه يسهب في الحديث عن حياة المصريين مقارنا في بعض المظاهر ما كان في العصر العثماني بما قبله ، وذكر في الباب الثالث منه ولاة مصر من الفتح العثماني حتى التاريخ السابق على نهج المؤلفات السابقة . وللبكري أيضا كتاب " الروضة الزهية في ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية " ، وقد سار فيه على نهج مؤلفاته التي تناولت تاريخ مصر منذ الفتح العثماني مع زيادة الأحداث إلى سنة 1070هـ (1660م) . ويلاحظ على مؤلفات البكري أن بعضها يكمل البعض الآخر . فأحيانا يوجز الحدث في مؤلف ثم يبسطه في مؤلف آخر . وأفادت تلك المؤلفات البحث في بيان دور العلماء في المجتمع ومكانتهم ، كما أفادت في الحديث عن القضاة وما قاموا به من دور قضائي أو إداري ، وجهود الهيئة الحاكمة في الاهتمام بالمنشآت الدينية والخيرية ، وبيان مدى التزام المسلمين بأقوال العلماء ، وعلاقتهم بالذميين .

ومن المصادر المخطوطة التي أفادت البحث أيضا كتاب " تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب " للملوى. وقد أوجز الحديث فيه عن تاريخ مصر قبل الفتح العثماني ، ثم ذكر بالتفصيل تاريخ كل باشا وأهم أعماله والأحداث التي جرت في عصره مع التركيز على الجانب الديني حتى سنة 1131هـ (1719م) . وقد أفاد البحث في بيان علاقة العلماء والسكان بالعثمانيين ، وجهود السلاطين والباشوات وغيرهم في إنشاء المؤسسات الدينية والخيرية وما رصدوه عليها من أموال كافية ، وذكْر بعض جوانب من الرعاية الاجتماعية .

وكذلك كتاب " قضاة مصر في القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر " للدميري (كان حيا سنة 1029هـ / 1620م). يتحدث فيه عن قضاة مصر منذ نهاية العصر المملوكي حتى عصره هو محددا مدة كل منهم وثقافته ودوره في مصر . وأفاد البحث في بيان موقف العلماء من الفتح العثماني ، وعلاقتهم بالدولة العثمانية ، ودور القضاة في مصر .

ومن بين الكتب المخطوطة التي أفادت البحث أيضا كتاب " قلائد العقيان في فضائل آل عثمان " لمرعي المقدسي (ت: 1033هـ / 1624م) . وترجع أهمية هذا الكتاب

إلى أنه يوضح دور العلماء في التأليف بين السلطة الحاكمة والرعية ببيان مزايا الحكم العثماني والصفات التي اتصف بها العثمانيون ودورهم الديني في العالم الإسلامي .

وبعد أن تحدثنا عن أهم المصادر المخطوطة نذكر أهم المصادر المنشورة التي أفادت البحث .

وأول ما تجدر الإشارة إليه هنا – نظرا لأهميته البالغة لهذا البحث – كتاب " عجائب الآثار في التراجم والأخبار " ، للجبرتي (ت : 1241هـ / 1826م) وهو أكثر المصادر دقة , وشمل كثيرا من جوانب الحياة ؛ إذ عاصر المؤلف أواخر العصر العثماني والاحتلال الفرنسي لمصر وعصر محمد علي ، وأفاد البحث في أغلب نقاطه .

ومن بين تلك الكتب التي أفاد منها البحث فائدة كبيرة كتاب " بدائع الزهور في وقائع الدهور " ، لابن إياس ، وقد عاصر المؤلف أواخر الدولة المملوكية وبداية الحكم العثماني في مصر . وركز في الجزء الخامس على تاريخ مصر منذ الأيام الأخيرة من عمر الدولة المملوكية حتى سنة 928هـ (1522م) على طريق التأريخ الشهري ثم اليومي ، وهو أشبه ما يكون بالصحف اليومية . وأفاد البحث في العديد من المواضع ، منها الحديث عن مكانة العلماء في المجتمع ودورهم ، والتعليم الديني الإسلامي ، وبعض صور الرعاية الاجتماعية والاحتفالات ، وكذلك علاقة المسلمين بالذميين .

وكذلك كتاب " لطائف المنن والأخلاق في وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق " ، للشعراني (898– 973 هـ / 1493– 1565م)، ورغم أهمية هذا الكتاب فقد غفل عنه الكثيرون ممن تناولوا تاريخ مصر العثمانية ، وهو ترجمة ذاتية للمؤلف. وأفاد البحث في تصوير أحوال المجتمع في عصره في العديد من النقاط مثل الحديث عن العلماء وعلاقتهم بالصوفية ، ودور المؤسسات الدينية في المجتمع.

وأخيرا من بين تلك الدراسات كتاب " وصف مصر " (الدولة الحديثة) ، وهو مجموعة أبحاث لمتخصصين فرنسيين صحبوا جيش الاحتلال إلى مصر ، ووصفوا الحياة المصرية وصفا شاملا . وأفاد البحث في عدة نقاط أهمها مكانة العلماء ، والمؤسسات الدينية والخيرية والأموال المخصصة لها ، وبعض نظم التعليم ، وبعض الآثار الاجتماعية للدين وأوضاع الذميين .

هذا ؛ وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن أكبر **الصعوبات** التي واجهت البحث تمثلت في ضآلة مادته العلمية المتاحة ، وفي المصادر التي تتسم بالقصور والتكرار ، هذا فضلا عن أن المراجع ، وبخاصة الأجنبية، يتضح فيها التحيز ضد الدولة العثمانية .

ثم إن العثور على الوثائق المهمة كان أمرا غير يسير ؛ فالوثائق الخاصة بالفترة العثمانية بعضها مفقود ، وبعضها الآخر محفوظ في أماكن قد لا يتاح الاطلاع على ما فيها إلا بصعوبة كالوثائق المحفوظة في دير سانت كاترين وفي بطريركية الأقباط الأرثوذكس بالقاهرة .

ويحوي أرشيف وزارة الأوقاف بالقاهرة ودار الكتب المصرية بعض حجج الأوقاف الخاصة بفترة البحث ولكنها تفتقر إلى فهرس مستقل بها .

والمكان المقصور على الوثائق بمصر هو دار الوثائق القومية بالقاهرة التي تحوي آلاف الوثائق غير المفهرسة ، وقراءتها تحتاج إلى صبر عليها ؛ لعدم وضوح كتابتها وتآكل بعض أجزاء صفحاتها أحيانا ، كما أن فيها معلومات مهمة جاءت عَرَضا ، لذا كان لزاما عليَّ المُكْث طويلا وقراءة العديد منها بلا جدوى .

وكانت الوثائق الصادرة عن المحاكم الشرعية يَرِد بها أحيانا أحكام للقضاة بلا تعليل ؛ فكنت أرجع إلى المصادر الفقهية على المذاهب الأربعة لأتبين الدليل الشرعي الذي بنى عليه القاضي حكمه تبعا لمذهبه .

وتجشمت السفر إلى الأماكن التي تكون مَظِنَّة المصادر أو المراجع التي تفيد البحث، ومن ذلك مكتبة رفاعة الطهطاوي بمدينة سوهاج ، ومكتبات الجامعات الإقليمية، فضلا عن مكتبات القاهرة .

وقرأت كتبا كثيرة أُلفت في العديد من فروع المعرفة في العصر العثماني لعلي أجد فيها ما يمت إلى البحث بصلة ، وقلما وجدت بُغيتي .

وفي النهاية أسأل الله المزيد من فضله بحمده وشكره والثناء عليه . وأتقدم بخالص شكري وتقديري وعظيم امتناني لأستاذي الدكتور **عبد الرحمن أحمد سالم** ، صاحب اليد البيضاء الذي أنقذ البحثَ وصاحبَه من غيابة الضياع إلى بر الآمال ، ولم يدخر وسعا في أن يُسدي إليّ ما يمكن أن يؤخذ على البحث من هنات ، وأشرف عليه حرفا حرفا ، وصفّاه ونقّاه من شَوْبه ، وكان لي ناصحا أمينا، فجزاه الله خيرا بما هو أهل له . وأتقدم بالشكر

والتقدير إلى أستاذي الدكتور **طاهر راغب** ، صاحب الفضل في إحياء هذا البحث ، فجزاه الله عني خيرا نظير كل ما قدم ، كما أقدم شكري إلى الدكتور حمدي شاهين ، على ما أبداه لي من ملاحظات في خطة البحث ، وكل من قدم لي يد العون لإتمام هذا البحث .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

الفهرس

مقدمة	1- 8
تمهيد	9- 36
أولا : اتساع الدولة العثمانية وتوليها زعامة العالم الإسلامي	9
ثانيا : تكوين المجتمع في مصر إبان العصر العثماني	15
الفصل الأول : التجمعات الدينية ، العلماء والصوفية	37- 106
العلماء	37
أولا : التدريس	37
ثانيا : الإفتاء	39
ثالثا : القضاء	41
رابعا : الدور الإداري للعلماء	53
خامسا : الدور السياسي للعلماء	57
أ- موقف العلماء من استيلاء العثمانيين على مصر	58
ب- مواقف سياسية للعلماء ضد الحكومة	76
سادسا : صور من تقدير العلماء	86
الصوفية	94
الفصل الثاني : المؤسسات الدينية	107- 155
أولا : أمثلة للمهتمين بالمؤسسات التعليمية	109
ثانيا : تخطيط المؤسسات الدينية	123
ثالثا : الدور الثقافي للمؤسسات الدينية	127
المرحلة الأولى	127
المرحلة العليا	130
أ- نظام الدراسة	133
ب- أشهر العلماء في مصر في العصر العثماني	145
رابعا : الدور السياسي والاجتماعي للمؤسسات الدينية	152

الفصل الثالث : التعليم الديني في البيوت 156- 175
أولا : تعليم الأطفال 156
ثانيا : تعليم النساء 157
ثالثا : تعليم العسكريين 160
تعليم المماليك 160
نماذج لمثقفين من العسكريين 162
رابعا : الحلقات العلمية في البيوت 166
خامسا : المكتبات الخاصة 170
الفصل الرابع : الآثار الاجتماعية للدين في مصر العثمانية 176- 237
أولا : الرعاية الاجتماعية 176
ثانيا : الاحتفالات الدينية وما يتصل بها 208
أ- الاحتفال بالمناسبات الدينية 209
ب- الاحتفالات المتعلقة بالهيئة الحاكمة 217
ج- الاحتفال بوفاء النيل 223
د- الاحتفالات الأسرية 225
ثالثا : حياة الأسرة 231
الفصل الخامس : أوضاع أهل الذمة في مصر العثمانية 238- 291
أولا : رعاية طوائف الذميين 239
ثانيا : الحرية الدينية 244
ثالثا : لجوء الذميين إلى القضاة المسلمين 259
رابعا : تأثر الذميين بالمسلمين في نمط الحياة وأحكام الأسرة 271
خامسا : الدخول في الإسلام 282
الخاتمة 292- 294
الملحق 295- 314
المصادر والمراجع 315-342
الفهرس 342- 343